

أدب الطفل في الجزائر... بين الأزمة والواقع ودوره في الخلق والإبداع والتكيف في ظل التحولات التكنولوجية

Childrne's Literature in Algeria...between crisis and reality and its role in creation , creativity and adaptation in light of technological transformations

* دطبيبي وداد

جامعة البليدة 2، (الجزائر)

تاريخ الارسال 2026-01-25 تاريخ القبول 2026-05-01 تاريخ النشر 2026-06-10

ملخص:

يعتبر أدب الطفل خيارا حافلا بموضوعات متنوعة وعديدة، ومن ناحية أخرى هو عطاء معرفي بشتى أشكاله من الأدب والثقافة والعلم والتاريخ والفن والعلوم، يُمكننا من اكتساب خبرة اجتماعية تساعد على اكتشاف وتعلم الحلول الممكنة في الحياة الحقيقية، كما يقتضي خبرات فنية وأسلوبية بديعة جذابة من ناحيتي الصيغة والمضمون، يغلب عليها الانفعال الوجداني والتدفق العاطفي وروع الكلام ورقته وعذوبته من قوة التعبير والتصوير والتماسك الفكري من دون مبالغة، يوقظ فيهم الحس الفني والذوق الجمالي الإنساني، ونحن اليوم، أمام ثورتي التكنولوجيا والمعرفة، بات علينا استيعاب فعاليته ودوره الحضاري، والالتفات إلى بعده العميق في التنمية والتربية الحقيقية، بوصفه مدخلا مهما لإصلاح العالم باستخراج المعرفة والإمكانات الفطرية الكامنة فيهم.

الكلمات المتاحية: الطفل / عطاء معرفي / خبرة اجتماعية / ثورتي التكنولوجيا

Abstract: Enter your abstract here (an abstract is a brief, comprehensive summary of the contents of the article).Enter your abstract here (an abstract is a brief, comprehensive summary of the contents of the article).

Enter your abstract here (an abstract is a brief, comprehensive summary of the contents of the article).Enter your abstract here (an abstract is a brief, comprehensive summary of the contents of the article).

Keywords: keywords, keywords, keywords, keywords, keywords

أدب الطفل من الموضوعات الملازمة لحياتنا أو بالأحرى هو جزء لا يتجزأ منها، بيد أن قليلا ما نستوقفه قصد التفكير فيه، وتعد الكتابة للطفل بألوانها وأجناسها وفنونها من ضروب الكتابة الإبداعية الفنية الجميلة المحملة بفيض من مشاعر الكاتب، تعتمد الانفعال الوجداني والتدفق العاطفي الحاد، كما أنها إحدى أهم الحقول المعرفية وخاصة في الوقت الراهن، فبات دورها يتجاوز الحدود التي انطوى عليها إلى ما هو أبعد، فقد أصبح وسيلة أساسية للثقافة والفهم والتوجيه ورفع المستوى الفكري للفرد والمجتمع.

وهو "إبداع مؤسس على خلق فني والذي يعتمد بنيانه اللغوي على ألفاظ سهلة ميسرة فصيحة غير حوشية تتفق والقاموس اللغوي للطفل، بالإضافة إلى خيال شفاف غير مركب ومضمون هادف متنوع وتوظيف كل تلك العناصر بحيث تتفق أساليب مخاطبتها وتوجهاتها مع عقلية الطفل وإدراكه (أحمد زلط، أدب الطفولة أصوله ومفاهيمه 1996، ص 25).

فالأدب كما هو معروف، له وظيفة اجتماعية وثقافية ناجعة للتثقيف وللتسلية في آن واحد، بالإضافة إلى ما يولده من تكثيف داخلي للإنسان بالأحاسيس البكر التي تولد الدهشة والتساؤل ومحاولة الكشف، والاختراق وتلك هي مهمة الأدب وكل الفنون الحضارية التي ليس هناك من هو أكثر منها في تحقيق ما يمكن أن نطلق عليه الوسيط الفعّال الذي يعنى بتشكيل الوعي الفكري بمختلف جوانب الثقافة، وبكل شكل من أشكال الحياة، فبات من الضروري الاهتمام بالقراءة وملازمتها للإنسان في جميع مراحل حياته وخاصة في مرحلة الطفولة.

وعالم الأدب - برأبي المتواضع - ليس قسما يعنى بالشعر وقسما ثان يعنى بالنثر، ولا مجرد رواية تروى، أو قصة متسلسلة الأحداث، أو مجرد تقسيم للزمن إلى حقب متباينة خيالية وواقعية، يطل من خلالها شخصيات تشركنا بأفعالهم ومواقفهم في رحلة سحرية عبر أزمنة مختلفة على بساط سحري، أو نقلة يتجاوز فيها المكان والزمان، ولكنه نسيج معقد من الفيض الوجداني والتدفق العاطفي، القادر على استيعاب بشكل فني عدد من الموضوعات المثقلة بالأحداث والخبرات والتجارب، بوفرة الذخيرة الإنسانية والحياتية.

فهو يتعدى حدود الفكر إلى فكر تأملي تحليلي إبداعي جمالي في آن واحد، ويكون فهم الأدب وفنونه على هذا النحو اجتماعيا متكاملا، تتفاعل فيه العوامل الداخلية والخارجية في عملية مضمرة وتكامل فيه عناصر الفعل الاجتماعي بكل أبعاده مهما كانت القضية دينية وأخلاقية وثقافية وفنية، وهو تدفق متجدد وتدقيق وإدراك تشترك فيه الحواس يهدف إلى إكساب القارئ العقلية المنفتحة التي تكسب الفرد حسن التصرف في مجابهة التحديات التي ترتقب المجتمع والأمة.

والمتأمل في أثر الأدب العربي بكل أجناسه الفنية وفنونه الإبداعية، سوف يبحر في خضم بحر عميق من الرؤى الإنسانية والإبداعات الفكرية والحكمة الفلسفية، المسكون باللغة وبالعروبة المتشبع بالنزعة الإسلامية العميقة، والطموحات الوطنية الكبيرة، يثير الحديث عن أدب الطفل جدلا واسع النطاق، نسعى من خلال هذا المقال فتح

نافذة على هذا الأدب وتمهيد الطريق بحيث يصبح الاهتمام به جزءا من ثقافتنا و الإقبال عليه من طرف الأدباء والاحتفاء به.

. مشكلة البحث:

إن تسليط الضوء من خلال هذه المداخلة على جانب مهم من جوانب المعرفة والبحث، و أحد أهم الفنون الحضارية التي حرصت عليها الشعوب منذ الأزل، ورعتها الأمم منذ القدم . عن فن أدب الطفل نتحدث لنطرح حزمة من التساؤلات في هذا الخصوص منها ، نشأته وتطوره، ودوره في تحقيق التنمية الثقافية المستدامة عبر إبراز دوره كقاعدة تتشكل وفقها هويتنا الحضارية . دون مبالغة . وكذا دوره في تطور الفكر الحضاري من جهة، وقيمته الجمالية والإبداعية من جهة أخرى، وستحدث عن أوضاعه الآن وأسباب ترده وانحداره وتضاؤل إنتاجه في حياتنا الأدبية.

1 . أدب الطفل نشأته وتطوره:

المعروف أن " أدب الأطفال لم يكن طارئا على الأدب العربي فحسب، بل هو طارئ على الآداب العالمية كلها، لأن الإنسان لم يقف على سلوك الطفل وقفة علمية إلا في السنين الأخيرة ولا عجب في ذلك، لأن اهتمامات الإنسان ودراساته منذ أقدم الأزمنة، بدأت كاهتمامات كونية بعيدة عن حياة الإنسان نفسه حيث تطلع إلى النجوم والكواكب وتأمل الظواهر الطبيعية بغية التعرف إليها في

محاولة لإخضاعها تحت سلطانه قبل أن يحاول التعرف إلى طبيعة سلوكه(الهيقي هادي نعمان دت ص72)، والمتأمل في الإنسان منذ فجر التاريخ أنه تعلم كيف يشعل النار وتحسس قوتها وتعلم الزراعة والتجارة وتربية الحيوانات كما تمكن من بناء المنازل وتوصل إلى عمل بعض الآلات البسيطة التي تعينه على الحياة، وهذا ما لاحظته المؤرخون: أن نشاط البشر في أول عهدهم وحتى القرن السادس عشر، كان يسير في اتجاهين منفصلين تماما أولهما الاتجاه الفلسفي، والثاني الاتجاه اليدوي، بينما الإبداع الذي ينتج عن التجارب الذاتية والنفسية وتفاعله مع الواقع فهي حديثة العهد. والتي في رأيه تمكنه السيطرة على البيئة وعلى الطبيعة والتحكم فيها لخدمته فحسب، وبالتالي طموحه كان منصب على استهداف العلوم لتلبية الاحتياجات التي تفتح أمامه أبواب التقدم البشري، أما الحاجة للفن وللإبداع لا أهمية لهما عنده، وهذا ما جعل الاهتمام بالطفل متأخرا جدا.

أما الخرافات والأساطير التي كان يتناقلها الناس فيما بينهم كانت تمثل عنصرا مهما في تشكل التربة الخصبة لنمو أدب الطفل فهو يستمد مادته من هذه التجارب الإنسانية المتوارثة على مدى عهود بطرق متنوعة مستوحاة من تجربة فرد وجماعة بدءا من الصين حتى مصر مروراً بالنتاج الفارسي واليوناني والهندي، وهذا التراث عبارة عن شعر الملاحم والشعر الغنائي، الحكايات والأساطير والخرافات، الحكم والمواعظ والنصائح، أغاني المهد والرعاة، وهي من الآثار الأدبية الفكرية والإبداعية التي كان لها دور مهم في استنطاق الأحداث التاريخية في حياة الشعوب وفي بناء الحضارة الإنسانية ككل.

. عند الغرب:

وحين نتناول الأمر تاريخياً نجد أدب الطفل قد مر بمراحل متعددة، وبتجارب متنوعة سواء كان عند العرب أو من حول العالم للنمى من خلال الكثير من البحوث الميدانية في دراسة الإنسانية والحضارات البشرية والمجتمعات، مخططاً نابعا من موقف: أن القدامى سعوا جاهدين إلى فرض السيطرة تماماً على مصير أبنائهم وفرض إرادتهم على مستقبلهم، فاعتمدوا مناهج التلقين والحفظ والنقل بلا أي عقلية ناقدة أو قدرة على الابتكار ولا على الخلق والإبداع وطرح الأسئلة والتفاعل، والنتيجة تقييد مستقبلهم بأغلال العودة والعيش في التراث والركون إليه.

مأساة أجيال هذه العصور هي في بحث آبائهم عن السبل لتكوين أبناء يشابهونهم في كل شيء وفي محاولة جعل الأبناء شخوصهم الثاني، وقد ظلت الاتجاهات الخاطئة سائدة آلاف السنين حيث غذتها بعض العقائد الدينية والفلسفية والاجتماعية والتربوية وكرستها النظم السياسية حتى وجدنا في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر فلسفة متكاملة تنحو ذلك النحو في التربية وقد كانت تلك الفلسفة تركز على ثلاثة أسس هي:

. "الإذعان إما قدر علينا في هذه الحياة

. الشر في الطفل طبع لا يستأصله إلا مراقبة الوالدين وأولو الأمر ولا سبيل إلى إصلاحه إلا بصولة العصا وإرهاب السوط، مادام رجلاً صغيراً عليه ما على الرجال من قيود.

. لكل فرد في المجتمع حدود، وليس له الحق في تعديها وهو يواجه العقابان لم يدع لها، سواء أكان طفلاً أو راشداً (الهيقي هادي نعمان، أدب الطفل فلسفته فنونه وسائطه (م س) ص 74).

استطاع رجال الدين خلال عشرات الألوف من السنين المظلمة بفرض معتقدات فكرية ودينية حتى يبقى المجتمع تحت إمرتها ودون استثناء أي فرد، فالكل تابع لسلطة الكنيسة ولا مجال لاستقلال الفرد عن الجماعة، مما يكفل عدم خروجه عن التقاليد السائدة التي كانت سبباً في تغييب القدرات العلمية والمهارات والفروق والقيم الفردية، وإذا أخل بالتزاماته فسوف يتعرض للعقاب، وخوفاً من ذلك يمتثل ويخضع لسلطانها ودون تجنب الأطفال والنساء فالحكم واقع عليهم كذلك.

أما ما يتعلق بالقيمة العملية أو التطبيقية لدراسة مرحلة الطفولة وأساليب التعامل معها فقد كان "منذ أواخر القرن الماضي [حيث] أخذ الاهتمام بالطفولة يتضح ويتطور، ويعتبر بريير (Preyer) في ألمانيا أول من فتح السبيل أمام الأبحاث لدراسة الطفولة في كتابه المشهور "عقل الطفل" L'Ame de l'enfant ... بالإضافة إلى كتابه "التطور العقلي عند الطفل" (صالح الشماخ، اللغة عند الطفل من الميلاد إلى السادسة 1955 ص 07)، وبعدها تجاوب رواد نظريات عديدة ناشطة بإعادة النظر حول المقصود بالطفل ومراحل نموه وطبيعة سلوكه التربوي وثقافته وعلاقاته، والتي جاءت مع التغييرات الجذرية في المجتمع الأوروبي و "لعل أشهرها نظريات "فرويد" القائلة بتكون خلق الطفل حتى الرابعة أو الخامسة من العمر ونظريات "ألفرد أدلر" التي تتحدث على الخصوص عن تكون علاقة الطفل بالآخرين وأن ذلك يتحدد منذ الأشهر الأولى وأن أسلوب المرء في الحياة ليتحدد في هذه السنوات المبكرة" (صالح الشماخ، اللغة عند الطفل من الميلاد إلى السادسة 1955 ص 07).

وفي أواسط القرن الثامن عشر ناد بعض الفلاسفة الفرنسيين من بينهم جان جاك روسو (1713 . 1778) بأن الارتقاء بالعقل البشري يكون عبر تحصيل المعارف والاستفادة منها في مجالات الحياة جميعا، وأن تترك فرصة تنمية قدراته والتعرف على العالم من حوله لا بتحصيل العلوم واكتناز المعارف، فكانت صيحة قوية على كثير من الكتاب والمربين نظريا وتطبيقيا.

وتجدر الإشارة إلى أن مصطلح الطفل أصبح منذ ذلك الحين، سجالا فكريا وفلسفيا بعد ما انقلب الأمر رأسا على عقب وخاصة بعد تراجع حكم الكنيسة، وأصبحت الحريات الفكرية والدينية ركيزة أساسية في المجتمع، فتعزز مكانة الطفل ككائن اجتماعي يعيش ضمن إطار جماعة ويشترك مع الكبار في القيم والممارسات وبالتالي تحول إلى طابع اجتماعي ثقافي بعد ظهور العلوم الإنسانية والاجتماعية التي سلطت الضوء عليه بشكل جدي وبالتالي أزاحت عنه الستار.

وأشهر الكتاب الأوائل الذين كتبوا أدبا خاصا للأطفال نذكر " الشاعر الفرنسي تشارلز بيرو (1628 . 1703) أن يضع أول قصة له "حكايات أمي الإوزة" التي كانت تحمل اسم ابنه كمؤلف لها، والتي لاقت نجاحا باهرا لم يتوقعه...وبعدها أصدر مجموعة قصصية متنوعة مناسبة للأطفال نذكر منها: " قصص وخرافات من الأزمنة القديمة" عام 1697، ذو اللحية الزرقاء، والجمال الناعس، وسندريلا، والقط ذو الحذاء...، وبعد هذه التجربة وجد أدب الطفل محط سجال في وأدي سلط عليه الضوء وبدأ الكتاب تتلمسه.

ومن الواضح أن الكتب والأفكار والمعارف، بل والأذواق اتجهت نحو نمط تفكير جديد في إطار التربية وتلبية احتياجات الطفل أولا، والالتفات إليه إلى غاية مرحلة البلوغ، التي تضمن وتفتح أبواب التقدم البشري، والبحث المستمر عن السبل الأكثر فاعلية للارتقاء به، والسعي لتنشئة أجيال على حب العلم والتعلم وأيضا فترجمت "ألف ليلة وليلة" إلى لغات عديدة سنة 1717، واهتم الكتاب والمؤلفين بالكتابة للطفل نذكر منهم: الكاتب الإنجليزي الساخر جاناثان سويفت (1667 . 1745) قصة خيالية "رحلات جاليفر" وأبدع الكاتب دانييل ديفو (1660 . 1731) في مجموعة قصصية تحت عنوان روبنسون كروسو (1719)، وألف السويسري بوهان دافيد هيس (1743 . 1818) رواية أسرة روبنسون السويسرية (1813)... وغيرهم كثير.

. عند العرب:

وفي المقابل عرفت الحضارة العربية الإسلامية مواطن الجمال والذوق الرفيع قبل آلاف السنين وتجلت معها ملامح وبقيت شاهدة ضمن قائمة طويلة من المفكرين الذين تغيرت معهم "النظرة الجاهلية للأطفال التي سادت المجتمعات القديمة أو بعضها وقد جاء الإسلام فغيرها أولا في العرب ثم في الفتوحات الإسلامية التي غيرت واقع الإنسان فأصبح مؤمنا يحمل رسالة في الحياة واستقامت فكرته على ما فطره الله عليه، فاهتم الإسلام بالطفولة اهتماما متميزا، ورعاها رعاية روحانية، لا توجد في أي أمة أو أي مذهب بشري، وانطلق العلماء المسلمون يقدمون الدراسات النظرية والتطبيقية في التربية ومناهجها، ورعاية الأطفال وبنائهم على أساس منهاج الله، وأمامهم هدف

رئيسي واضح المعالم وهو إعداد الجيل المؤمن الذي يعرف مهمته في الحياة" (مدثر حميد، طاهرة قرة العين/ أدب الأطفال ص 151).

فحماية الطفل في الإسلام ورعايته، واجب إنساني ملقى على عاتق البشرية بأسرها، ورؤيته واضحة تعدت حدود الفكر التقليدي والتخلف الفكري السائد في العالم آنذاك، وقد حققت الحضارة الإسلامية إنجازات معرفية وعقلانية ساهمت بمنجزات فريدة من نوعها في العلوم والآداب والفكر والطب والفلسفة جعلت منها أحد أهم مصادر الحضارات الأخرى، وشواهد التاريخ أكثر من أن تحصى.

لذلك حرصت على المعرفة والبحث المستمر في تطبيق سياسات وأهداف تعكس تلقائيا ارتقاء الأمة وتحسينها لمواجهة أقسى التحديات وكان التعلم والتعليم وسيلة أساسية لضمان حق الفرد لضمان وجوده وتطوير حياته و "في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم نصوص كثيرة تتعلق بالطفولة، والعناية بالأطفال، وتربيتهم وتعليمهم، والعطف عليهم، وتدريبهم على الصلاة والصوم، وفعل الخير، وقبل نصوص الأحاديث الصحيحة كان القرآن قد اهتم بالطفولة، ووضح حقوقها وكفلها، وشدد على الالتزام لها، ونجد فيه سورا تدل على الصور الرائعة للتربية والبناء" (مدثر حميد، طاهرة قرة العين/ أدب الأطفال ص 151).

وهي صور بتنوعها تتسع لكل معاني الحياة وتزيد، لتشمل كل متطلبات الحياة إذ يعد المصدر الأصيل والمرجع الموثوق لأساليب وطرق التربية الإسلامية مهما تغيرت الأجيال والأذواق، والتي ليس لها مثيل في كل كتب الدارسين والأبحاث الأجنبية التي تغزو حياتنا اليوم، وخاصة مع دخول العالم في مرحلة انتشار شبكة الإنترنت، وما خلفته من عوالم افتراضية جديدة ومواقع تواصل اجتماعية مختلفة، وهي اعتبارات غيرت حياة المجتمعات والفرد تغييرا شديدا.

أما في العصر الحديث فشهد أدب الطفل في عالمنا العربي تطورا ملحوظا وخاصة في مصر التي شهدت اهتماما كبيرا بداية مع ترجمات رفاة الطهطاوي (1801 . 1873) الذي كان مسؤول التعليم ونذكر منها " حكايات للأطفال " و " عقلة الإصبع "، وأيضا " أحمد شوقي " الذي كتب قصصا شعرية على ألسنة الحيوان،... والأناشيد والأغنيات فكتب أكثر من ثلاثين قصة شعرا، وعشر مقطوعات من الأغاني والأناشيد، وفي عام 1903م ظهر الكاتب علي فكري الذي ألف كتابا بعنوان " مسامرات البنات " ثم كتب " النصيح المبين في محفوظات البنين " ... وجاء " محمد الهراوي " فأسس مكتبة سمير للأطفال وكتب لهم الأغاني والقصص " (عبد الفتاح أبو معال/ أدب الأطفال وأساليب تربيتهم وتعليمهم وتثقيفهم 1988/ ص 97)

كما عرف تطورا ملحوظا في سوريا خاصة في القرن العشرين حيث أصدر الشاعر " عبد الكريم الحيدري " مجموعة من الدواوين نذكر منها " حديقة الأشعار المدرسية "، كما أصدر الكاتب " سليمان العيسى " مسرحيا غنائية أشهرها مسرحية " مسرحية النهر " وأناشيد عديدة للصغار، دون أن ننسى الروائي " زكرياء تامر " الذي قام بتأليف مائة رواية للأطفال والتي ترجمت إلى لغات عديدة. لن نتطرق فيما تبقى لنا من صفحات لتاريخ هذا الأدب والوقوف على كل التفاصيل،

بقدر ما نهدف من ورائه التطرق إلى أزمة أدب الطفل في عصرنا الحالي في الجزائر خاصة، فهو ليس حركة إبداعية فحسب وإنما عملية تفضوية تنموية إنسانية في الدرجة الثانية بعد التعليم، لأننا مبالون إلى ضرورة الوقوف أمام واقع هذا الأمر بجديّة شديدة،

(2). أزمة أدب الطفل في الجزائر، وخطر آفاق العولمة :

أما الجزائر فهي كغيرها من البلدان النامية مرت بعد استقلالها سنة 1962م بمرحلة تغيير سياسي واجتماعي واقتصادي عميق، وانطلقت في هذه المرحلة الجديدة بإصلاحات وإجراءات مست كل القطاعات، وبالتأكيد عملت على تبني فلسفة وسياسة تربوية تترجم واقعها بعد الاستبداد الغاشم وتتجاوب في نفس الوقت مع مطالب العصر. لهذا وهي تحت الخطى قدما، توجه بعض الكتاب والمؤلفين بإنجازات وأعمال مثمرة ساندوا بها مسيرتها وخططها كخطوة ضرورية في عالم الإبداع للطفل الجزائري، وتجدر الإشارة هنا إلى ما تحملته جمعية العلماء المسلمين والدور المهم الذي لعبته بخصوص قضية الدفاع عن اللغة العربية بتقديم حلول لتنظيم أنشطة توعاوية لتعزيز مكانتها والتحسيس بأهميتها وتحفيز الشعب باستعمالها، ومن بينهم نذكر: "الشاعر محمد آل خليفة (ت 1979) والمؤرخ عبد الرحمن الجيلاني (ت 2010)، والأديب أحمد رضا حوحو (ت 1956)، ومحمد الأخضر السائحي (ت 2005)، ومحمد ناصر، ويحيى مسعودي، وجمال الطاهري، ومحمد الهادي السنوسي الزاهري، ومفدي زكرياء، والشيخ مولود بن الموهوب، ومحمد بن العابد الجلالي السماقي/ والأستاذ محمد الشبايكي (ت 2005)، والأستاذ محمد الصالح رمضان وغيرهم" (الربيعي بن سلامة/ من أدب الأطفال في الجزائر والعالم العربي /210 ص 47).

ولا شك إذا قرأنا هؤلاء لاكتشفنا حقيقة ارتباطهم بقضايا نضالية تنطق بمعاناة المجتمع وظروف الاستعمار الفرنسي الغاشم في العمق، وهي إجمالا سمة مرافقة للكتاب الجزائريين مجتمعين سواء في الشعر أو النثر، للكبار وللصغار، تنطق بقيمتين أساسيتين الحرية وحب الوطن، واستطاعوا أن يحققوا رؤية فنية خالصة المعاني وصورة نابضة بحياة البؤس والجوع والفقر والموت والخراب، قلما تناولها غيرهم من الكتاب.

نقرأ على سبيل التمثيل للشاعر "محمد الأخضر السائحي" الذي يعتبر من فحول شعراء الجزائر، يقول: سندراً

عنك بالسيف العذاب

ونرفع للعلم فيك العلم

فمن للجزائر غير الشباب

يجاهد بالسيف أو بالقلم

غدا يتحقق ذلك الأمل

لديك وليس الغد ببعيد

هذه القصيدة وغيرها حفرت في وجدان أطفالنا تيارا وطنيا، ظل يحاول غرسه وتعميقه في الروح والوطن، يحلم الشاعر أن يرتقي أبناء وطنه ويحققوا مزيدا من التطور والنهضة الاجتماعية وينحصر إيمانه بأن التغيير يأتي بالعلم لأنه

سبيل الشعوب نحو غايات وأجناد عظيمة، وإذا تمعنا قصائده بأعين نافذة فاحصة وجدناها مرآة لمعاناة أبناء وطنه في تلك الفترة، يتألم لألمهم ويحزن لحزنهم، آملا خروج وطنه من المحن والذي يتحقق في نظره بطلب العلم والكفاح والقضاء على الجهل، كما اتخذ من شعره أداة للوعظ وتهذيب النفوس فتحول من شاعر إلى رجل يتحمل مسؤولية بلاده ونهضتها وتحررها.

ومثل ذلك التمسك، برز أدب الطفل في سنوات ما بعد الاستقلال وازدهر بشكل لافت للنظر، أكد هذا التطور على تحسن المستوى الثقافي وانتشار الفكر التنويري والإصلاحي في البلاد، ولا بد من الإشارة للجهد الذي بذلته وزارة الاتصال والثقافة، وأيضا الدور الذي لعبته الإذاعة والتلفزة الجزائرية في تلك الفترة الحرجة من تاريخ الجزائر، وكذلك منظمات جمعيات عديدة شجعت الأقلام الإبداعية على إنتاج أدبا خاصا لهذه الفئة المهمة، ونظمت الدولة مسابقة لهذه المبادرات مكلفة بجوائز قيمة، ونتج عن هذه المرحلة أسماء بارزة وأعمال باهرة لا يمكن إنكار أثرها على الطفل الجزائري.

وكانت النتيجة أقيمت النوادي الشبابية، والصالونات الأدبية والاجتماعية لنشر الفكر التنويري الحديث، وانتعشت في هذه السنوات الترجمة والانفتاح على النتاج الأدبي لبلدان عربية وغير عربية، وكذا الحركة المسرحية التي شكلت همزة تواصل إيجابية ساهمت في إيقاظ الجمال في نفوس أطفالنا وتغيير رؤيتهم للعالم من الحرب إلى الاستقلال، وهو يتطلع إلى مستقبل سعيد موعود، حتى خب وقل للغاية بعد ذلك وأضحت لا تجد في هذا الفن كتبا في خضم تيارات واصطدامات قومية ودينية كانت طاغية على مستوى الوطن، وإن وجدت لا تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة.

وأصبح هنا الوحيد حشو الأدمغة بالحقائق والمعلومات، حال أنظمة التعليم السائدة، الراضية لأي إبداع فكري، مجرد بقايا لسياسات المستعمر، نظام قائم على خلفية التخلف الفكري والجمود العقلي، علما بأن الأسرة الجزائرية اليوم تتخبط تائهة وسط همجية هذه الأنظمة المعتمدة اليوم، تنوء بثقل المناهج التعليمية المشلولة المفروض على أطفالنا والطامسة للحريات وللمهارات، ونتيجة لتلك الذهنية تراجع بيع كتب الفكر والفلسفة والأدب وحلت محلها كتب الطبخ والتنجيم، فبات من الضروري التنبيه إلى خطورة هذه المرحلة الإقصائية المدمرة التي زادت هوة التحجر الفكري داخل مجتمعنا.

إن مواجهة ثقافة العولمة غير ممكنة إلا باستجابة أطفالنا وشبابنا لهذا التحدي الحضاري بامتلاك ثقافة إبداعية تمكنهم من إحداث نقلة نوعية على كل المستويات. من هذا المنطلق نصل إلى نقطة أساسية هي قصور السياسات الثقافية التنموية الجزائرية اليوم في تحقيق قبلة ثقافية حضارية في ظل المرحلة الفكرية والثقافية التي يشهدها العالم المتقدم، وعجزنا تماما في استخدام الأدب وفنونه الخاصة بالطفل للموازنة بين الأمس واليوم سبيل للتفكير في الغد والمستقبل.

إذا في اعتقادي، لقد ضاعت هذه السنوات الطويلة في تطبيق سياسة فاشلة عاجزة على الإحاطة بالتطورات الممتدة والحاصلة في العالم رغم الجهود الكثيرة، فأدب الطفل لا يقل عن غيره من تحديات الحاضر، فهو أدب ينهض على الخيال الناضج الذي به نتجاوز الحدود الضيقة، و الزمن الجديد يتطلب منا جميعا ثقافة جديدة تلتفت إلى بذور التنمية وتحمل مسؤولية النشء الجديد في أولى خطواته نحو تكوين إنسان صالح ومواطن فعال، الحاجة هنا إلى أدب إيجابي يجعلنا نواجه الحياة بكل ما فيها من أزمات، وإلى أدب يجعلنا نعيد النظر في القيم وطرق العيش في سلام، ونقدر على العطاء وخدمة الآخرين، وبحاجة إلى أدب يجعلنا نجول بتفكيرنا ونشعر بانتمائنا لهذا الوطن، والتخفيف في نفس الوقت من سلبات العولمة بهدف التفاعل الإيجابي معها مع الاحتفاظ بروح العروبة الأصيلة.

3. أدب الطفل مفهومه، خصائصه، أهدافه:

الناظر في كتب الموسوعات الأدبية أو في المتخيل الإبداعي يجد أن أدب الأطفال هو " إحدى الطرق المبكرة التي يواجه من خلالها الصغار القصص، فإنه يلعب دورا مؤثرا في تشكيل كيفية تفكيرنا في العالم وفهمنا له، فالقصص تعد مصادر رئيسية للصور والمفردات والسلوكيات والتركيبات والتفسيرات التي نحتاج إليها لكي نتأمل التجربة، وذلك لأنه عندما توجه القصص للأطفال، فغالبا ما يكون لها ارتباط وثيق بنوع أو بآخر من أنواع التعليم، وبإمكانها أن تكون ناقلا مهما للمعلومات المتعلقة بالمتغيرات الثقافية في الماضي والحاضر" (كيمبرلي رينولدز، ترجمة ياسر حسن/ أدب الأطفال مقدمة قصيرة جدا/ 2014 ص 14).

في الواقع نحن ميالون إلى النظر أن أدب الطفل في جوهره يعتبر عملية إبداعية نفعية متعددة الغايات، فهو يزيد من وعي أطفالنا عبر تحصيل المعارف والاستفادة منه في مجالات الحياة جميعا، كما يعتبر أهم رافد لمقاربة المواضيع العلمية والمعرفية والأخلاقية والإنسانية والثقافية والتربوية وغيرها، ذو قيمة جمالية رفيعة بصياغة فنية إبداعية مناسبة للطفل، في شكل متجدد مدهش، يكسر اعتياداتهم ويقدم ببراعة خاصة في إطار لغوي وفني مختلف بطريقة تحقق التلقائية والعفوية والبراءة.

يوضحه سمير عبد الوهاب أحمد قائلا: "أنه كل ما يقدم للطفل من مادة أدبية أو علمية، بصورة مكتوبة أو منطوقة أو مرئية تتوفر فيها معايير الأدب الجيد، وتراعي خصائص نمو الأطفال وحاجاتهم وتتفق مع ميولهم واستعداداتهم، وتساهم في بناء الأطر المعرفية الثقافية، والعاطفية والقيمية والسلوكية المهنية، وصولا إلى بناء شخصية سوية متزنة تتأثر بالمجتمع الذي تعيش فيه وتؤثر تأثيرا إيجابيا" (سمير عبد الوهاب أحمد/ أدب الطفل قراءات نظريات ونماذج تطبيقية/ 2006 ص 49).

ويؤكد موفق رياض على أنه "نوع أدبي متجدد في الأب الحديث يتوجه لمرحلة عمرية متدرجة من عمر الإنسان، يكتبه الكبار للصغار في الفنون النثرية والشعرية المتنوعة في لغة تتناسب وجمهور الأطفال ومداركهم وفقا لمعايير كتاب النص الأدبي للأطفال ... ومن أهم روافد أدب الطفولة في أدب أي لغة الحكايات الشفهية والشعبية ويهدف النص الأدبي في سائر قوالبه إلى الوظائف الأخلاقية والتربوية والفنية والجمالية" (موفق رياض مقدادي/ البنى الحكائية في أدب الأطفال العربي الحديث/ 2012 ص 17).

مع نهاية القرن العشرين، أصبح أدب الطفل بكل أشكاله وأجناسه، من القضايا التي تناقش في الأوساط العلمية، والفلسفية والنفسية والدينية ومحاولاتهم المستمرة لاكتشافه والالتفات إليه بعمق، لأنه تجربة إنسانية متعلقة بمرحلة حساسة. مرحلة الطفولة إلى البلوغ. يتضمن أدوات تحفز فيهم الذكاء وتثير فيهم الفضول الذي هو بداية التفكير، ويمكن لهذا الأدب الغني بخبرات لغوية وخيالية أن يشارك هذه الفئة الرعاية و الاطمئنان بمجرد الشعور بمن يسمعه ويشاركه بسبب ما يحمله من معاني وأخلاق وقيم، كل هذه الأدوات يعمل كاتب أدب الطفل بمراعاتها في أسلوب شيق وبفكرة جذابة يحقق من خلالها قيما عديدة تساعد على بناء شخصية متوازنة.

. خصائصه:

الذين يكتبون للأطفال عليهم مسؤولية مضاعفة، لأنهم يكتبون لبناء جيل، هدفهم تشكيل شخصية واعية منتجة منتمية مؤمنة، تحب وطنها، وتنتمي لعقيدتها الإسلامية السمحة، فالكتابة للطفل عمل إبداعي يحتاج إلى خبرة ودراية ووعي وفهم لطبيعته وشخصيته ومستواه، وأدب الطفل صياغة لثقافة من مجموعة ثقافات ومفاهيم وقيم وطموحات، وعلى ذلك لا بد من فهم نفسية الطفل وبيئته وإمكاناته ... والعمل الإبداعي خير وسيلة لتعليم الطفل وإيصال المعلومة له، فهو يتعلم من القصة وسردها أكثر من تعلمه من التوجيهات المجردة، لأن في القصة تشويقا وأحداثا تشد ذهن القارئ/ الطفل أو السامع/ الطفل.

فأدب الطفل يكمن في تلك الإبداعات المختلفة والأشكال الأدبية المتنوعة المكتوبة والمسموعة أو المرئية التفاعلية، تحمل في طياتها خبرات فكرية ولغوية ودينية وتربوية وقيم أخرى، إضافة إلى أهم عنصر وهي المتعة الحسية والنفسية الملائمة له من حيث مستواه اللغوي والعمرى والفكري، بغية تحقيق أهداف ثقافية معرفية تجعل منه إنسانا ناضجا واعيا متميزا متذوقا للجمال والفن.

ويمكن أن نخلص إلى أهم الخصائص والشروط التي يجب توافرها لدى كاتب أدب الأطفال في النقاط التالية:

. على كاتب أدب الأطفال شعرا أو نثرا، أن يكون موهوبا يمتلك الخبرة الكافية، واعيا بهذا المجال.

. المعرفة الكافية بمستوى الجمهور المتلقي، وبتحديد عمره، وطبيعته وبيئته وميولاته.

. استغلال الوسائل الإيقاعية والموسيقية والصور الفنية والبيانية والبلاغية لاستثارتها واستجابته للقراءة.

. توظيف لغة مناسبة وكلمات وتعابير تناسب قدراته استيعابهم لها وفهم بوضوح ما يقرأ.

. اختيار مواضيع لها هدف تربوي سام وتأصيل المبادئ والأخلاق، التي تساعد في إيقاظ قدراته الخيالية والعاطفية

والنفسية.

. العمل على تنمية الذوق الحسي والفني والأدبي عنده.

. إدخال السعادة والمتعة وإثارة البهجة في نفوسهم.

نموذج من قصائد للشاعر محمد الأخضر السائحي في ديوانه " أناشيد النصر "

لا تسألني ألف لحن في فؤادي عن بلادي

عن جمال عف عن نضال عن جهاد
هي شعري إذ أغنى هي قصدي إذ أنادي
يا بلادي يا بلادي
يا موطن الحبيب يا جنة الأوطان
من روضك الخصب من حسنك الفتان
خاطرت في القشيب من أجل الألوان
وجئت بالحبيب من هذه الألحان
يا بلادي يا بلادي

ويقول في قصيدة أخرى:

وطني يا أجمل اسم في الوجود
يا عريق المجد في كل العهود
أرضك الحرة ألوان الورود
واسمك الغالي نشيد الزمن
وطني يا وطني يا وطني

كتب محمد الأخضر السائحي للأطفال، ووهب شعره للطفل الجزائري خاصة والعربي عموماً، فتغنّى بالحرية والجهاد والبطولة والوطن، وهي موضوعات أخذت أكبر قدر في شعره، بهدف غرس حب الوطن في نفوس الأطفال، يثير سلاسة أسلوبه ويعكس حلاوة النغم فيه وجمال التعبير، تميز شعره بخفة الوزن بتوظيف الأوزان السريعة والسهلة والخفيفة على سمع المتلقي، اهتمامه الواضح بتقنية التكرار المحببة لدى الطفل، والتي تساعده على الفهم والحفظ بسهولة. برع "الأخضر السائحي" في الجمع بين الشكل الجميل الذي يثير الطفل عن طريق الاهتمام بسهولة المعاني والألفاظ أيضاً وبين اختيار الموضوع الهادف الموجه بإحكام، فأفضى هذا التوازن البصري والسمعي، جمالاً وسحراً مميزاً من شاعر مميز سخر قلمه للطفل الجزائري، يعثر القارئ والدارس، على قصائد عدة في دواوينه تتناول القضية الوطنية، ويمكن إيراد ما لا يحصى من الأمثلة على شعر وطني للسائحي يعبر من خلاله على صدق مشاعره تجاه وطنه وأبناء وطنه.

وفي الأخير نقول: أن هناك مسؤولية كبيرة تقع على عاتق الأسرة أولاً ثم الجامعات ومراكز البحوث والمؤسسات التربوية والثقافية والمدارس العامة والخاصة، ووسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية لأخذ زمام المبادرة وتبني سياسة إصلاحية جدية، شاملة وعلى نحو واسع ومتواصل لتكريسها في إنتاج أدب للطفل ووضعه في المقدمة، بالإضافة إلى نشر ثقافة القراءة في وسط أطفالنا وشبابنا.

قائمة المراجع

- أحمد زلط، أدب الطفولة أصوله ومفاهيمه 1996، ص 25.
- أحمد زلط، أدب الطفولة أصوله ومفاهيمه 1996، ص 25.
- الربيعي بن سلامة/ من أدب الأطفال في الجزائر والعالم العربي /210 ص 47.
- الهيدي هادي نعمان دت ص 72 .
- الهيدي هادي نعمان، أدب الطفل فلسفته فنونه وسائطه (م س) ص 74 .
- الهيدي هادي نعمان، أدب الطفل فلسفته فنونه وسائطه (م س) ص 76 .
- سمير عبد الوهاب أحمد/ أدب الطفل قراءات نظريات ونماذج تطبيقية/ 2006 ص 49.
- صالح الشماع، اللغة عند الطفل من الميلاد إلى السادسة 1955 ص 07.
- عبد الفتاح أبو معال/ أدب الأطفال وأساليب تربيتهم وتعليمهم وتنقيفهم 1988/ ص 97.
- كيمبرلي رينولدز، ترجمة ياسر حسن/ أدب الأطفال مقدمة قصيرة جدا/ 2014 ص 14.
- مدثر حميد، طاهرة قرة العين/ أدب الأطفال ص 151. (بلا تاريخ).
- موفق رياض مقدادي/ البنى الحكائية في أدب الأطفال العربي الحديث/ 2012 ص 17. (بلا تاريخ).